كلمة التحرير

الفكر الشيوعي وكيف نقاومه؟

الشيوعية عقيدة مبنية على أسس فلسفية وعلى فكر له تصوره الواضح في ميادين الاقتصاد والسياسة والتاريخ والاجتماع.

وقد فتنت هذه العقيدة المنحرفة كثيراً من الناس في إيمانهم بالله سبحانه وتعالى، وما يترتب على هذا الإيمان من خضوع لله واستسلام له وتنفيذ لشرعه في الحياة وإعلاء لكلمته في الأرض، وقد استطاعت هذه العقيدة المنحرفة أن تضلل كثيرا من المسلمين وغير المسلمين وأن تنفذ إلى كثير من البلاد في دساتيرها ومناهجها التعليمية، ووسائلها الإعلامية، وإلى أن يحتل مكانة في بعض الجامعات حتى أصبحت من نظريات الحياة التي تدرس والتي يروج لها في أوساط السذج والبسطاء من طلبة العلم ومدعيه، وأنصاف المتعلمين وتجمعات العمال والاتحادات النسائية والطلابية.

مثل هذه ا العقيدة الفاسدة لا تواجه أبدا بإجراءات سياسية أو اقتصادية أو تربوية ولكنها تواجه من البداية بعقيدة صحيحة مبنية على فكر سليم وتصور كامل يشمل جوانب الحياة كلها في الاقتصاد والسياسة والتربية والاجتماع والتاريخ، وحين نقول عقيدة صحيحة نقصد أن العقائد المنحرفة والمنسوبة للإسلام، والتصورات الناقصة للفكر الإسلامي لا تستطيع أن تقف أمام الفكر الشيوعي. بل إن العقائد المنحرفة تمهد السبيل لانتشار الشيوعية، كما أن المواقف المتعنتة والعواطف الجامحة تؤدي إلى نتائج عكسية يكتسب من ورائها دعاة الشيوعية، والدليل على أن العقائد المنحرفة تعجز أمام الفكر الشيوعي أن أكبر االأحزاب الشيوعية في أوربا متمركزة في معقل المسيحية ومقر البابا، بل إن الحزب الشيوعي الإيطالي كان قاب قوسين أو أدنى من حكم إيطاليا بالرغم من الدعم الأمريكي والصلوات الموجهة من الكاثوليك في العالم.

إن الفكر الإسلامي الذي يمكنه مواجهة الشيوعية هو الفكر الذي يشمل حياة المجتمع الإسلامي، ويوجهه فيما أراد الله له.

إن الفكر الشيوعي يقوم أساسًا على تقديم المذهب المادي بديلا عن الدين، وعلى التسليم بحقائق يبني عليها هذا الفكر. وأهمها عدم الاعتراف بغير المادة، فلا موجود إلا المادة. وإن هذه المادة لها صفة الأزلية والقدم، فهي غير مخلوقة ولا يلحقها العدم، وإن هذه الحياة الدنيا وجدت عن طريق الحركة العشوائية لهذه المادة، والتسليم بهذه الأفكار يقتضي عدم الإيمان بما هو غيبي لأنه لا يخضع للمشاهدة والفكر، فالله غير موجود وكذلك الجن والملائكة وهذا بدوره يقتضي بطلان الأديان التي جاءت بما يعتقد المذهب الشيوعي أنه أوهام أملت الناس في حياة أخرى، وفي البعث والحساب والجزاء وبالتالي فإن الإنسانية لا تستمد تشريعها في مجالات الحياة المختلفة من مصادر خارجة عنه

فالإنسان هو الذي يشرع لنفسه وهو المسئول عن نفسه ومصيره. ولأن هذا المذهب لا يؤمن إلا بما هو مادي فهو يعتبر ما يسمى بالروح والعقل والنفس شكلا من أشكال المـــادة، وأن هذه المادة في حركتها واضطرابها تفسر على أساس القوانين الطبيعية التي أوجدت نفسها بنفسها.

هذه الأفكار التي يقوم عليها الفكر المـــادي الملحد قد تعرضت لمناقشات واسعة دحضت آراءه وأفكاره، بل إن حركة التاريخ والحياة نفسها أثبتت زيف كـــثير من هذه الأفكار.

لقد تحطمت نظرية عدم وجود غير المـــادة أمام وجود الفكر والمشاعر والعقل وأمام المـــاديات التي يتعامل معها العلماء ولا ترى بالحواس. مثل الذرة وجزئياتها، كما أثبت العلم أن المـــادة ليست أزلية لأن تاريخها معروف. وأن المادة في أصغر ذراتها وتحللها وعناصرها الدقيقة اعتمدت وتعتمد في وجودها على غيرها، والأزلي هو الذي لا يعتمد في وجوده أو استمراره على غيره، والذي يعتمد في بقائه عـــلى شروط معينة أو ظروف معينة لا يمكن أن يكون أزليا. كالمـــادة التي أثبت العلماء أنها حـــادثة ومتحولة ومعتمدة على غيرها أما أن الحياة وجدت عن طريق المصادفة فهو افتراض يتعارض مع ما يدعيه الشيوعيون من قيام مذهبهم على العلم. ولم يعد عقل في الحياة مهما كان صغيرا أن يقبل تكون الحياة والكائنات من ذرات سابحة في الفضاء. وأكبر دليل على بطلان ذلك ما نراه في الحياة من تناسق وتنظيم وخضوع لقوانين معينة فـــالخالق المدبر وراء كل شيء نراه أو نعلمه في الحـــياة التي لا مجال فيها للمصادفة والعشوائية وإلا لمـــا كـــان لكل كائن عناصره وقوانينه الدقيقة.

إن الإيمان بوجود خـــالق لهذا الكون ومدبر يقتضي الإيمان بالملائكة والجن. فالذي خلق من المادة إنسانا نراه ونسمعه يخلق منها ملائكة وجنا لا نراهم ولا نسمـــعهم. فالنار والنور ماديان وليست المـــادة وقفًا على ما تدركه حواسنا فقط، فـــالله وحـــده هو الذي ليس لوجوده صفة مادية لا واقعا ولا موضوعا فهو منزه عن الشبيه والمماثلة {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وما عدا الله فهو الذي يماثل غيره تماثلا نسبيا.

والإيمان بالله خالقا يقتضي الإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار وهذه من البديهيات {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} وكيف لا يؤمن بالبعث من يعترف بالخلق والوجود الأول أن الإيمان بوجود الله وأزليته وخلقه للحياة وما فيها يترتب عليه حتمية خضوع الإنسانية لخالقها في مجال التشريع لشؤون الحياة كلها سياسية واجتماعية واقتصادية، فـــالإنسان ليس سيد نفسه لأنـــه محـــكوم بقوى تتحكم في ذاته ومصيره ووجوده، وله احتياجه الفطري إلى قوة يستند إليها ويؤمن بها ويحتمي بها ويؤمل فيها، وإلا ما كان للحياة معنى ولا للعمل هدف، فالإنسان محكوم بسنن الله الكونية يجب أن يخضع لها ومحكوم بقوانين بيولوجية يرضخ لها رغما عنه، وبالتالي فإنه لا بد من أن يخضع في نظام حياته إلى ما يشرعه له خالقه. والإنسان مرتبط

بقانون في الحياة هو قانون المحافظة على الحياة. والإيمان بالله في قمة هذا كله لأنه الذي يحقق مصالح الإنسان ويمنح الطمأنينة والأمن والاستقرار وازدهار الحياة وسيادة المثل والقيم الإنسانية.

هذه لمحات عن الفكر المادي الذي لم يثبت أمام المنطق والعقل والعلم والواقع، واعتراف الماديين بمخالفة مذهبهم لما سبق جعلهم يغيرون ويبدلون في فكرهم وفلسفتهم وأسلوبهم، ويمكننا أن نواجههم بعدة وسائل منها.

1- تغيير واقع المجتمعات الإسلامية التي تمثل الآن المناخ الطيب لانتشار بذور الشيوعية ونمائها. فالشيوعية لم تدخل إلا البلاد التي تعاني مجتمعاتها من اضطراب في الأوضاع وتغير في النظم السياسية وفقدان للشخصية. وقد كان (كارل ماركس) يظن أن الظروف مواتية لقيام الثورة الاشتراكية في انجلترا إلا أن الأوضاع السيئة لحكم القياصرة في روسيا هو الذي عجل بالثورة هناك بحثا عن البديل فيها، ثم تكرر الأمر أخيرا في فيتنام والحبشة واليمن والصومال وليبيا، وبعض البلاد حيث استطاع الشيوعيون أن يدخلوا عناصر منهم في أماكن يستطيعون منها إحداث تغيير لصالحهم متى وصلت الأوضاع في سوئها إلى اللحظة التي تجعل الأمة في قناعة بأي نوع من التغيير حتى ولو كان ماركسيا كما حدث وسيحدث في كثير من البلاد.

ولا يمكن تغيير حال الأمم الإسلامية إلا باتخاذ إجراءات أهمها التخلي عن التخبط بين الأنظمة المختلفة من اشتراكية ورأسمالية، وعلمانية، وقومية، وأن ترجع إلى النظام الذي يتناسب مع طبيعتها وفطرتها الإنسانية والمرتبطة بعقيدة هذه الأمم وتاريخها وحقيقتها وهو الإسلام.

2- توحيد الولاء، فالدول الإسلامية تتعدد ولاءاتها، وتتنوع انتماءاتها بين دول مرتبطة بنفوذ السوفييت، تدور في فلكهم وتجعل ولاءها لهم فوق ولائها للعقيدة، وتظن أنها بذلك تحمي نظامها من الإمبريالية واليهودية وغيرها، بينما دول تسير في ركب النفوذ الأمريكي، وترى في أمريكا حامية للعالم محققة للعدالة وقائدة في محاربة الشيوعية، كما أن النفوذ اليهودي بدأ يدخل مباشرة في اللعبة، وارتفعت الأصوات باتخاذ حزام ضد الشيوعية مع دولة اليهود.

إن القوى كلها تتصارع في منطقة العالم الإسلامي خوفا من الإسلام أولا، ثم محاولة لاحتكار مقدرات الأمم الإسلامية الاقتصادية النامية الواسعة، ثم استغلال قوتها البشرية الضخمة لتكون مخلب قط للجبهة التي تسخرها وتسيطر عليها.

إن تدخل روسيا في أفغانستان ظنّه كثير من السذّج مفاجأة لأمريكا التي أظهرت ذلك، بينما تمسح طائرات التجسس الأمريكية العالم كله بأجهزة دقيقة تصور بالليل وبالنهار ومن مسافات بعيدة كل حركة ظاهرة في العالم خاصة في المعسكر الاشتراكي، والمسألة لا تتعدى مسألة اقتسام الأدوار وتحديد مناطق النفوذ، وإلا فبماذا نفسر إطلاق يد أمريكا في الشرق الأوسط، بينما يسكت الأمريكان

عن تحرك الروس في القرن الأفريقي؟ إن الخلاف لا ينشب بين القوى العظمى على مناطق النفوذ بل ينشب على التعديات من جانب على نصيب الجانب الآخر، وفيما اتفقا عليه والسذاجة السياسية هي التي تحرك دولا في جانب وأخرى في جانب آخر إلى جانب المصالح.

إن الأمم الإسلامية لكي توقف الخطر الشيوعي لابد لها أولا من توحيد ولائها بحيث يكون لله ورسوله **{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}** المائدة 55- 56.

ويقول الله تعالى: **{لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ...}** إلخ الآية.

3- معالجة الواقع الاقتصادي للأمم الإسلامية. فأغلب الدول الإسلامية تتميز مجتماعتها بطبقة متميزة وطبقات فقيرة، ولا توزع فيها الثروة القومية توزيعا عادلا. وطبقـــة الفقراء والمعوزين والمعدمين هي الغالبة، وليس هناك مناخ أفضل للشيوعية من هذا فحقد الفقراء على الأغنياء وأصحاب الجاه والنفوذ كبير وهو المدخـــل الذي تتغلغل الشيوعية منه إلى طبقة (البلوريتاريا) وطلاب المدارس وتجمعات المزارعين وغيرهم. ولو قامت هذه المجتمعات على أساس النظام الإسلامي في الاقتصاد والذي يوفر العمل والمسكن والدخل القائم على الجهد ووضع الشخص المناسب في المكان المناسب واختفت مظاهر الرشوة والمحسوبية والتعامل بالأنظمة الربوية في الدول والبنوك والتجارة – لو وجد كل ذلك لما كانت المعاناة الاقتصادية التي تعني منها الدول الإسلامية. ولما كان للشيوعية الفرصة في استغلال هذه الأوضاع السيئة لبث الاضطراب والفوضى في الشعوب المسلمة وحدها.

إن مقاومة الشيوعية كما ذكرنا لا تكون بقرارات وسياسات، ولكن بمعرفة المذهب الشيوعي المادي، وتفنيد ادعاءاته بالعقل والعلم والمنطق، وهذا لا يتأتى إلا بتغيير الظروف ومعرفة تامة بالإسلام والأخذ به نظاما شاملا للحياة في كل جوانبها.

د.عباس محجوب

عضو التحرير